الفن والطبيعـــة

بقـــلم نظمي خليل

. . ونعني بالطبيعة العالم المرئي الذي يقع تحت بصرنا ، ولسنا نبغي من وراء تعريفنا للطبيعة تحديدها أو تبسيطها ، ولكننا نريد أن نعرف هل هناك تباين بين العالم المرئي وبين الفنان ، وهل هناك اختلاف جوهري بين جمال العالم المرئي ، وذلك الجمال الذي نراه ونحس به عندما ننظر إلى لوحة مصور أو تمثال مثّال ؟

إذا أجبنا عن هذا السؤال بالايجاب ، وهو الحق والصواب كما أعتقد — رأينا أنفسنا مضطرين الى أن نشرح وظيفة الفنان الذي يقف بيننا وبين الطبيعة . . فلو وقف الفن عند سرد مناظر الطبيعة ، أو اقتصر على التقاط مناظرها وصورها كما هي ، لرأينا آلة التصوير تسرع إلى انتزاع مكانة التصوير . ولكن الحقيقة أن الفن ليس تمثيلاً للطبيعة ، ولكنه تفسير لها . ولسنا نغالي إذا قلنا إن الفن يبتدئ حيث يترك الفنان صحبته القوية للطبيعة ، بعد أن يشيع في جوها أنغاماً من عمله الخاص تبعاً لشعوره الشخصي وذوقه الموسيقي . فالطبيعة معين لن ينضب للفن ، — وهي اليوم — كما كانت ، وكما ستبقى أبداً — أكبر موح له بروائع الحسن والجمال . ولكن القوانين التي تتحكم في عمل الفن منفصلة تماماً عن قوانين الطبيعة . فاذا كانت النغمة التوافقية في موسيقى الرعاة عملاً فنياً جليلا ، فذلك لأن بيتهوفن لم يحاك نغمات الطبيعة تبعاً لشروط الموسيقى وقوانينها ، وأفصح عن تلك العواطف الخاصة التي أثارتها فيه صحبته القوية للطبيعة في أنغام سامية ، كانت من وحيه وإلهامه ، ثم وجهت في هذا الطريق الموسيقي بواسطة المهارة الفنية التي هي أصيلة في كل عمل فني . . .

يقول بعض الناس إن مهمة الفن في هذا العالم هي أن يكمل ما في الطبيعة من نقص . وقد يفهم البعض منهم أن الفن يأتي بأشياء ليست في الطبيعة ، أي أنه يزيد في مواد الطبيعة الأساسية . ولكن هذا الفهم خطأ ، وهذا الظن إثم وجور على الطبيعة . فليس لدى الفن ما يجود به على الطبيعة من روائع المناظر وعجائب الآثار . . وليس لدى الفنان شيء جديد . ولكن لديه شيئاً واحداً ، وهو الذي يخدع هؤلاء البسطاء ، فيتوهمونه زيادة أو جديداً ، هذا الشيء الذي يبدو جديداً هو الحصر أو التحديد لمناظر الطبيعة ومظاهرها . فقد يرى إنسان نهراً يجري فلا يحس إحساساً كاملا بروعة مياهه وقوة تياره ، وما على شاطئيه من رمال ونباتات أو غابات وصخور . قد لا يفطن الناظر إلى هذا النهر للجمال المختبيء في هذه المناظر الطبيعية الفسيحة الضخمة الهائلة . فينصرف عن النظر إليها الى صورة رسام أو مصور ماهر قد صور هذا النهر وهو يتدفق ويتغلغل في الاحراج والجبال

وليس معنى هذا أن النهر الجاري أقل جمالاً وروعة من صورة الرسام ، لا ، بل إن الناظر نفسه لم يفطن إلى هذا الجمال الأصيل في تلك المناظر الطبيعية العظيمة ، لأنه جمال متشعب فسيح . فلما جاء الفنان وحصره في لوحته الصغيرة ، أمكنه أن يشعر به ، وأن يقف على أسراره الدفينة ؛ ولو أمكن الرائي أن يدرك الجمال الطبيعي في مظهره الطبيعي لوجده جمالا خالصاً عبقرياً . ولكن عين الانسان لا تستطيع أن تأخذ النهر الجاري من منبعه إلى مصبه ، أو أن تلقي نظرة كاملة على الجبل الشامخ من قمته إلى سفحه . فان حاولت ذلك لحقها الكلال والملال ، وفضلت النظر في الصورة على التطلع إلى المرئي ذاته مهما يكن جماله وروعته

هذا هو الشائع بين الناس . ومن أجل هذا قيل إن الفن يكمل ما عجزت عنه الطبيعة ، والحقيقة أن الفنان لا يزيد شيئاً على ما في الطبيعة من ثروة وغنى ، وإن كان يحصر هذه الثروة ويبرزها في صورة جميلة ومنظر بهي . . .

هذا شيء ، والشيء الآخر هو أن الفن ليس محاكاة للطبيعة أو للحياة ، ولكنه خلاصة ما في الطبيعة والحياة

فالفن قد يحاكي الطبيعة ، وقد يحاكي الحياة ، ولكنه لن ينسخ من الطبيعة أو الحياة صوراً متشابهة متطابقة ، فهو محاكاة وليس نسخاً . . والفرق بين المحاكاة والنسخ هو أن الفنان الذي يحاكي الطبيعة يأخذ منها ما يجده ملائماً لفنه ، أي ينتقي أروع ما فيها من الآثار ، ثم يسلط عليها قوانينه الفنية فيلم أجزاءها ويعطي لها الوضع المناسب الجميل ، فتبرز للرائي جديدة ضافية في حلل الجدة والابداع

أما النسخ ، فهو صورة طبق الأصل للطبيعة . ولو كان الفن نسخاً للحياة لما أحسسنا بعظمة الفن الأصلية وسحر قوته الدفينة ، ولجاء ثقيلاً مضطرباً مشوهاً كالحياة ذاتها . ولما وجدنا فيه هذا الشعور الخفي الذي يسكن آلامنا ، ويريحنا من آلام الحياة وعنت الأيام . بل لما اعتبرنا الفن مأوى لنا نلجأ إليه كلما أثقلتنا متاعب الحياة وضقنا بمطالبها ذرعاً ، ولما كانت لنا حاجة ماسة اليه . فلو كان الفنان يقدم لنا جبلا كالجبل الذي نتسلقه ، أو نهراً كالنهر الذي نعـــبره ، أو مرعى مخصوصراً قد انتثرت فوقه الأغنام والمواشي ، كتلك المراعي التي نراها كل يوم في قرانا ، لما اهتززنا لصوره ، ولما أدركنا لها سراً أو معنى

ولو كان الفن يصور لنا حادثة يومية ، أو عملا من أعمالنا العادية التي نلامسها كل يوم دون أن يخلع عليها شيئاً من شعوره وشخصيته ، لما شعرنا بحاجة الحياة اليه ، ولما عملنا على نموه وازدهاره واكتفينا بالتاريخ

ولـكن الفن لا يقـدم لنا كل ما في الطبيعة ولا كل ما في الحياة ، ولـكنه يختار أروع ما في الطبيعة ، وأجل ما في الحياة ، ثم يقدم لنا هذه في شكل رائع جذاب ، وفي صورة فنية جميلة

هذا هو السبب الذي من أجله نلجأ إلى الفن ونهرع اليه كلما أثقلتنا الحياة أو ثقلت علينا الطبيعة . فنحن لا نعمل في هذه الحالة أكثر من أن نتخلص من بعض هذه المنغصات أو الأشياء الثقيلة الجافة التي يتجاهلها الفن ، ولا يقف عندها أو يأبه لها

والفن لا يختار في الغالب موضوعه من الحياة الظاهرة ، أو من تلك المرئيات التي تلوح للعين في كل يوم ، ثم تختفي وكأنها لم تكن ، وإنما يختار موضوعه من قلب الطبيعة ، ويتخذ مادته من لب الحياة

فالفنان العظيم حقاً هو الذي ينفذ إلى الحياة الداخلية ، وهو الذي يتغلغل في أعماق الطبيعة ، ويقف على كامن أسرارها ويبرزها للعين والحس في صور فاتنة آخاذة

فهو لا يصور كل ما يحس به أو يقع عليـه بصره ، وإنما يفكر كثيراً فيما يبدعه للناس . فلا يختار إلا ما كان عميقاً في النفس ، أصيلا في الطبيعة . وهو في عمله هذا يخالف المدنية كل المخالفة ، لأن المدنية تطور للحياة الظاهرية ، الحياة الحسية ؛ أما الفن فهو تطور لحياتنا الداخليـة . فهو يتصل بالقلب الانساني والفكر الانساني ، أما المدنية فتتصل بأعمال الانسان وأحداثه في هذه الحياة المائجة الصاخبة . لذلك كان الفن أصيلا في أصوله ثابتاً في جوهره ، وكانت المدنية سريعة التغير ، كثيرة التباين والاختلاف . .

وليس معنى هذا أن الفن جامد محافظ ، عدو للتطور ، ولـكنه في الحقيقة في تغير دائم ، وإن خفي عنا مظهر هذا التغير لعمقه وبعده عن إدراكنا الحسي المجرد . . .

نظمي خليل

لجنة التأليف والترجمة والنشر

السلسلة الفلسفية

اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر اخراج سلسلة فلسفية تقدم للقراء تاريخ الفلسفة في مختلف عصوره من فلسفة يونانية واسلامية وحديثة ، كما تقدم لهم خلاصة للمذاهب الفلسفية ، وتراجم مشاهير الفلاسفة بأسلوب سهل

وسيشرف على هذا العمل الأستاذ (أحمد أمين)

وستخرج السلسلة في فترات متعاقبة

وستكون باكورتها

قصة الفلسفة اليونانية

للأستاذين : أحمد أمين وزكي نجيب محمود

يقع الكتاب في نحو ٣٦٠ صفحة ويبحث في الفلسفة اليونانية من أول عهدها إلى آخر الأفلاطونية الحديثة ويعرضها في شكل واضح جذاب أشبه ما يكون بالقصة — قد حلي بصور كثيرة لمشاهير الفلاسفة ومدارس الفلسفة

يصدر في ١٥ ابريل سنة ١٩٣٥ .

(ويطلب من لجنة التأليف والمكاتب الشهيرة)